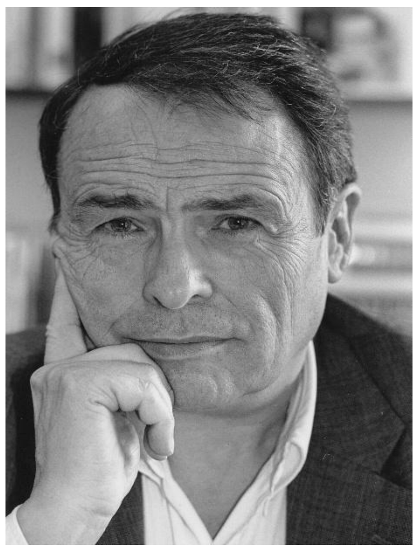


الصراع الأسري وإرادة السيطرة: مقاربة نقدية تطبيقية في ضوء مقولات نظرية بيير بورديو

د. حسام الدين فياض / باحث وأكاديمي سوري
الأستاذ المساعد في النظرية الاجتماعية المعاصرة
قسم علم الاجتماع كلية الآداب في جامعة ماردين- تركيا

في التأطير النظري لمقولاته...

حين يقترب القارئ من **سوسيولوجيا بيير بورديو** يشعر منذ اللحظة الأولى أنه **أمام مشروع فكري لا يحاول تفسير المجتمع من الخارج فقط، بل يسعى إلى كشف الآليات الخفية التي تجعل الإنسان يعيش داخل العالم الاجتماعي دون أن يدرك تماماً كيف يصنع هذا العالم في داخله**. فبورديو لم يكن منشغلاً بوصف الظواهر الاجتماعية بوصفها أحداثاً منفصلة، بل كان يحاول فهم الطريقة التي تتحول بها السلطة إلى عادات يومية، وكيف تتخفى الهيمنة داخل **اللغة والذوق والتعليم والعلاقات والأساليب الحياتية** حتى تبدو طبيعية وبديهية. لقد انطلق من فكرة أن المجتمع لا يمارس سلطته دائماً بالقوة المباشرة، بل عبر تشكيل وعي الإنسان نفسه، بحيث يتصرف الأفراد غالباً وفق حدود اجتماعية يظنون أنها اختيارات شخصية حرة، بينما هي في العمق نتاج تاريخ طويل من التنشئة والتطبيع الاجتماعي.



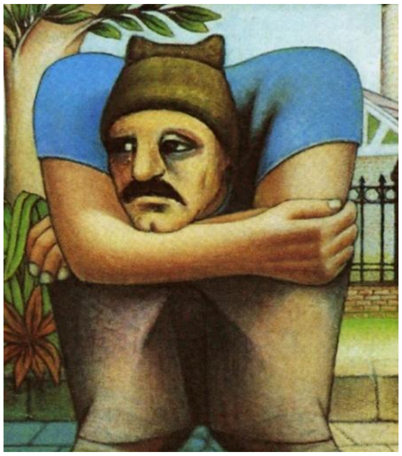
ومن هنا جاءت مقولاته **السوسيولوجية الكبرى** التي حاول من خلالها **إعادة بناء العلاقة بين الإنسان والبنية الاجتماعية**. فالإنسان عند بورديو ليس ذاتاً مستقلة بالكامل كما تصورت بعض الاتجاهات الفردانية، وليس مجرد دمية تحركها البنى الاجتماعية بصورة آلية كما ذهبت بعض النزعات الحتمية، بل هو كائن اجتماعي يحمل داخله آثار العالم الذي نشأ فيه. وهذا ما عبر عنه **بمفهوم الهابيتوس**، ذلك المفهوم الذي يعد من أكثر مفاهيمه شهرة وتعقيداً في آن واحد، ويقصد به منظومة الاستعدادات العميقة التي يكتسبها الفرد من بيئته الاجتماعية، فتتحول مع الزمن إلى أسلوب تلقائي في التفكير والشعور والتصرف. فالطريقة التي يتحدث بها الإنسان، واللغة التي يستخدمها، ونوعية الكتب التي يقرأها، وطريقة جلوسه، وحتى ذوقه الفني والغذائي، ليست مجرد تفاصيل فردية بريئة، بل تعبيرات اجتماعية متراكمة تسكن الجسد والوعي معاً. **فالطفل الذي ينشأ داخل أسرة تمتلك رأس مال ثقافياً مرتفعاً يكتسب منذ الصغر ثقة لغوية ومرونة تعبيرية ومعايير ذوقية تجعله أقرب إلى عالم المدرسة والجامعة والمؤسسات الثقافية، بينما**

يشعر القادم من بيئات مهمشة غالباً بنوع من الغربة داخل هذه الفضاءات، حتى وإن كان يمتلك ذكاء حقيقياً. وهنا يكشف بورديو كيف تتحول الفوارق الاجتماعية إلى فروق تبدو طبيعية، وكأن المجتمع يعيد إنتاج نفسه من خلال الأفراد أنفسهم.



ولذلك لم يكن **مفهوم رأس المال** عنده مقتصراً على المال والثروة الاقتصادية، بل أعاد توسيعه بطريقة قلبت كثيراً من التصورات التقليدية. فإلى جانب رأس المال الاقتصادي تحدث عن رأس المال الثقافي الذي يشمل المعرفة والتعليم واللغة والقدرة على التذوق الثقافي، ورأس المال الاجتماعي الذي يتمثل في شبكة العلاقات والاتصالات الاجتماعية، ثم رأس المال الرمزي الذي يظهر في المكانة والهيبة والاعتراف الاجتماعي. وبهذا المعنى يصبح المجتمع فضاء تتصارع داخله أشكال متعددة من القوة، وليس مجرد صراع اقتصادي مباشر. **فالطالب الذي يمتلك لغة قوية وشهادات مرموقة وعلاقات نافذة لا يدخل الحياة الاجتماعية بالطريقة نفسها التي يدخل بها شخص حُرم من هذه الموارد الرمزية والثقافية.** ولذلك كان بورديو يرى أن المدرسة، التي تقدم عادة بوصفها مؤسسة محايدة لتحقيق العدالة الاجتماعية، تساهم أحياناً في إعادة إنتاج اللامساواة، لأنها تكافئ ضمنياً أبناء الطبقات القريبة من ثقافتها ولغتها، بينما تجعل الآخرين يبدون أقل كفاءة، لا لأنهم أقل ذكاءً بالضرورة، بل لأنهم يفتقرون إلى الرأسمال الثقافي الذي تعترف به المؤسسة التعليمية بوصفه معياراً للنجاح.

ومن هنا تتضح رؤيته للمجتمع باعتباره مجموعة " **حقول اجتماعية** " متداخلة، فهناك الحقل السياسي والحقل الديني والحقل الإعلامي والحقل الأكاديمي والحقل الفني، ولكل حقل قواعده الخاصة وأشكال السلطة السائدة داخله. لكن هذه الحقول ليست فضاءات بريئة، بل ساحات صراع مستمر يسعى فيها الفاعلون إلى تحقيق النفوذ والهيمنة والاعتراف.



فالسياسي لا يصارع فقط من أجل السلطة السياسية، بل من أجل الشرعية الرمزية أيضاً، والأكاديمي لا ينافس فقط على المعرفة، بل على الاعتراف العلمي والمكانة الفكرية، والفنان لا يسعى فقط إلى الإبداع، بل إلى احتلال موقع داخل الحقل الثقافي يمنحه الشرعية والتميز. غير أن هذا الصراع لا يتم في

ظروف متكافئة، لأن بعض الأفراد يدخلون هذه الحقول وهم يمتلكون رصيداً ضخماً من رؤوس الأموال المختلفة، بينما يدخل آخرون وهم مثقلون بالتهميش والحرمان.



أما **منهجيته السوسيولوجية** فقد كانت محاولة **لتجاوز الانقسام التقليدي بين الذات والموضوع، وبين الفرد والبنية، وبين الفهم والتفسير.** فقد رفض بورديو أن يكتفي عالم الاجتماع بالملاحظة الخارجية الباردة، كما رفض أيضاً الذوبان الكامل داخل التجربة الذاتية للفاعلين الاجتماعيين. لذلك دعا إلى نوع من **السوسيولوجيا الانعكاسية** التي تجعل الباحث واعياً بموقعه الاجتماعي وبالتحيزات التي قد تؤثر في نظرته إلى المجتمع. فالدارس عنده ليس عقلاً محايداً معلقاً خارج العالم، بل هو جزء من البنية الاجتماعية التي يدرسها، ولهذا ينبغي أن يمارس نقداً دائماً لأدواته ومفاهيمه وموقعه الرمزي. وقد ظهر ذلك بوضوح في دراساته الميدانية التي جمعت بين **التحليل النظري والعمل الإمبيريقي**، إذ لم يكن يفصل بين المفهوم المجرد والواقع الاجتماعي الملموس، بل كان يحاول دائماً الكشف عن العلاقة بين البنى العميقة والممارسات اليومية.

وفي قلب هذا المشروع كله يظهر مفهوم " **العنف الرمزي** "، وهو ربما من أكثر مفاهيمه قوة وجرأة، لأن بورديو أراد من خلاله أن يبين أن أخطر أشكال الهيمنة ليست تلك التي تُفرض بالقوة المباشرة، بل تلك التي تجعل الناس يقبلون بالنظام الاجتماعي وكأنه طبيعي وعادل. فعندما يقتنع الفقير بأن فقره نتيجة فشله الشخصي فقط، أو عندما تنظر طبقة اجتماعية إلى ذوق الطبقة العليا بوصفه الأرقى والأكثر تحضراً، فإننا نكون أمام شكل من أشكال العنف الرمزي الذي يمارس عبر المدرسة والإعلام واللغة والثقافة وأنماط الحياة اليومية. إنه عنف لا يحتاج إلى عصا أو سجن، لأنه ينجح في التسلل إلى الوعي ذاته، فيجعل الإنسان يشارك أحياناً في إعادة إنتاج الهيمنة الواقعة عليه دون أن يشعر بذلك.

وهكذا تبدو سوسيولوجيا بورديو مشروعاً ضخماً لفهم الإنسان بوصفه نتاجاً تاريخياً واجتماعياً معقداً، وفهم المجتمع بوصفه شبكة دقيقة من الصراعات والرموز والقوى الخفية. إنها سوسيولوجيا تكشف أن ما يبدو فردياً في حياتنا اليومية يخفي وراءه تاريخاً اجتماعياً كاملاً، وأن الذوق واللغة والطموح والنجاح وحتى الإحساس بالقيمة الذاتية ليست معطيات طبيعية خالصة، بل نتائج لمسارات اجتماعية طويلة. ولذلك لم يكن هدف بورديو مجرد تفسير المجتمع، بل تعرية الأوهام التي تجعل الهيمنة تبدو قدراً طبيعياً، وتحويل السوسيولوجيا إلى أداة نقد تكشف ما تحاول البنى الاجتماعية إخفاءه خلف ستار البديهيات اليومية.

– توظيف المقولات النظرية في الصراع على السلطة الأسرية:

يمكن النظر إلى الصراع الأسري من **منظور سوسيولوجيا بورديو** بوصفه أكثر من مجرد خلافات يومية بين أفراد تجمعهم رابطة القرابة، **لأن الأسرة عند بورديو ليست فضاء عاطفياً بريئاً ومعزولاً عن المجتمع، بل هي حقل اجتماعي مصغر تتقاطع داخله السلطة والمصالح ورؤوس الأموال المختلفة، وتعاد داخله إنتاج علاقات الهيمنة بصورة ناعمة وخفية أحياناً، وعنيفة ومباشرة أحياناً أخرى.** فالصراع الأسري، في هذا التصور، لا ينشأ فقط بسبب اختلاف الطباع أو سوء التفاهم، بل نتيجة تنافس ضمني على من يمتلك حق تعريف الواقع داخل الأسرة، ومن يفرض رؤيته بوصفها الطبيعية، والصحيحة، والمشروعة. ولذلك فإن إرادة السيطرة داخل الأسرة يمكن فهمها بوصفها محاولة لاحتكار السلطة الرمزية داخل هذا الحقل الاجتماعي الصغير.



ومن هنا تبرز **أهمية مفهوم الهابيتوس عند بورديو**، لأن كل فرد يدخل الأسرة وهو يحمل داخله تاريخاً اجتماعياً كاملاً تشكل عبر التربية والبيئة والثقافة والخبرة السابقة. فالزوج لا يتعامل مع السلطة الأسرية بوصفها فكرة مجردة، بل وفق استعدادات ذهنية ونفسية اكتسبها من أسرته الأصلية ومن المجتمع الذي نشأ فيه، وكذلك الزوجة والأبناء. ولهذا كثيراً ما تتحول الأسرة إلى مساحة تصطدم فيها **هابيتوسات مختلفة، فالشخص الذي تربى داخل بنية أبوية صارمة قد يرى الطاعة أمراً بديهياً، بينما يرى آخر نشأ في بيئة أكثر تحرراً أن المشاركة والحوار هما الشكل الطبيعي للعلاقة الأسرية. وعندما يحاول كل طرف فرض رؤيته بوصفها النموذج المشروع للحياة العائلية، ينشأ الصراع بوصفه صراعاً على الشرعية الرمزية أكثر منه خلافاً عابراً.**

كما يساعد **مفهوم رأس المال** في تفسير أشكال النفوذ داخل الأسرة، لأن السيطرة لا تمارس دائماً بالقوة الجسدية أو السلطة القانونية، بل عبر امتلاك أنواع معينة من رؤوس الأموال. فقد يمتلك أحد الأطراف رأس المال الاقتصادي فيفرض قراراته عبر التحكم بالإنفاق والاحتياجات المعيشية، بينما قد يمتلك طرف آخر رأسمال ثقافياً يجعله الأكثر قدرة على الإقناع والتوجيه وصياغة المعاني داخل الأسرة. كذلك تلعب المكانة الاجتماعية والعمر والتعليم وحتى القدرة اللغوية دوراً في تحديد من يمتلك الصوت الأقوى داخل البناء الأسري. وهنا يكشف بورديو أن السلطة الأسرية ليست ثابتة، بل شبكة علاقات متغيرة تتوزع فيها القوة بصورة غير متكافئة.



أما **مفهوم العنف الرمزي** فيعد من أكثر مفاهيم بورديو قدرة على تفسير الأبعاد الخفية للصراع الأسري المعاصر، لأن كثيراً من أشكال السيطرة داخل الأسرة لا تمارس بالعنف الصريح، بل عبر اللغة والتأنيب والتقليل من القيمة والسخرية وإشعار الطرف الآخر بالدونية أو العجز. فحين يقنع أحد الزوجين الآخر بأنه غير قادر على اتخاذ القرار، أو حين يُربّى الأبناء على الطاعة المطلقة بوصفها فضيلة أخلاقية لا يجوز مساءلتها، فإننا أمام عنف رمزي يجعل الهيمنة تبدو طبيعية ومشروعة. والأخطر أن الأفراد قد يتقبلون هذا الشكل من السيطرة ويعيدون إنتاجه دون وعي، لأنهم تشربوه منذ الطفولة بوصفه جزءاً من النظام الأسري الطبيعي.

وفي **السياق المعاصر** ازداد هذا الصراع تعقيداً بفعل **التحولات الاجتماعية والثقافية والتكنولوجية،** إذ لم تعد الأسرة بنية مغلقة كما كانت في السابق، بل أصبحت مفتوحة على وسائل التواصل الاجتماعي وأنماط الحياة الحديثة والخطابات الجديدة حول الحرية والهوية والاستقلال. **وهذا الانفتاح خلق تصادماً بين هابيتوس تقليدي تشكل داخل مجتمع هرمي محافظ، وهابيتوس جديد أكثر ميلاً إلى الفردانية ورفض السلطة المطلقة.** لذلك لم يعد **الصراع الأسري مجرد خلاف بين أجيال، بل صراع بين رؤيتين للعالم، الأولى ترى السلطة الأسرية امتداداً للنظام الاجتماعي التقليدي، ورؤية أخرى ترى العلاقات الأسرية فضاء للتفاوض والمساواة والاعتراف المتبادل.**

ومن هذا المنظور، **فإن إرادة السيطرة داخل الأسرة ليست انحرافاً فردياً بسيطاً، بل انعكاس لبنى اجتماعية أوسع تُعيد إنتاج نفسها داخل العلاقات اليومية. فالأسرة عند بورديو ليست معزولة عن المجتمع، بل هي إحدى المؤسسات التي يعاد عبرها إنتاج القيم والتراتبيات والسلطات السائدة.** ولهذا فإن فهم الصراع الأسري يتطلب تجاوز التفسيرات النفسية الضيقة نحو تحليل سوسيولوجي يكشف كيف تتحول السلطة الاجتماعية إلى ممارسات يومية دقيقة تسكن اللغة والتربية والعلاقات العاطفية نفسها، بحيث يصبح الصراع على الحب والقرار والاعتراف داخل الأسرة جزءاً من صراع أوسع على المعنى والهيمنة داخل المجتمع كله.



- الرؤية المقترحة للتخفيف من حدة الصراع حسب بورديو:

من منظور بورديو **لا يمكن القضاء على الصراع الأسري بصورة نهائية، لأن الصراع في جوهره مرتبط ببنية المجتمع نفسها وباختلال توزيع السلطة ورؤوس الأموال داخل العلاقات الاجتماعية.** فبورديو لا ينظر إلى الأسرة بوصفها فضاءً مثالياً خالياً من التوتر، بل باعتبارها حقلاً اجتماعياً تتنافس داخله الإرادات والمواقع والسلطات

الرمزية. لذلك فإن الحل عنده لا يقوم على إنهاء الاختلاف، بل على تفكيك آليات الهيمنة التي تجعل العلاقة الأسرية تتحول من علاقة اعتراف متبادل إلى علاقة سيطرة وخضوع.



ولهذا يبدأ الحل أولاً من **الوعي النقدي**، أي أن يدرك أفراد الأسرة أن كثيراً من السلوكيات التي يظنونها "طبيعية" ليست طبيعية بالضرورة، بل نتاج تربية اجتماعية طويلة. فالرجل الذي يرى نفسه صاحب القرار المطلق قد يكون في الحقيقة يعيد إنتاج " **هابيتوس أبوي** " تشربه منذ طفولته، والمرأة التي تقبل التهميش أحياناً قد تكون قد تعلمت تاريخياً أن الطاعة فضيلة اجتماعية. ومن هنا فإن الخطوة الأولى لتحرير العلاقة الأسرية هي كشف العنف الرمزي المختبئ داخل اللغة والتربية والعادات اليومية، لأن الهيمنة تصبح أضعف حين تكشف وتُفهم.

كما أن بورديو يلمح إلى أهمية إعادة توزيع رأس المال داخل الأسرة، لأن السيطرة غالباً ما تنشأ من احتكار أحد الأطراف لمصادر القوة الاقتصادية أو الثقافية أو الرمزية. فكلما أصبحت العلاقة أكثر توازناً في المعرفة والقرار والاعتراف والقدرة الاقتصادية، تراجع منطق السيطرة لصالح منطق الشراكة. ولذلك فإن التعليم، والاستقلال الاقتصادي، والحوار، وتوسيع فرص التعبير داخل الأسرة، ليست مجرد قيم أخلاقية عند بورديو، بل وسائل لإعادة بناء التوازن داخل الحقل الأسري نفسه.

ويظهر الحل أيضاً في إعادة تعريف السلطة الأسرية. **فالسلطة عند بورديو لا تصبح خطيرة فقط عندما تكون قمعية، بل عندما تقدم بوصفها أمراً مقدساً لا يجوز مساءلته.** لذلك فإن الأسرة الأكثر قدرة على تجاوز الصراع ليست الأسرة التي تلغي الاختلاف، بل تلك التي تحول السلطة من شكل هرمي مغلق إلى شكل تفاوضي قائم على الاعتراف المتبادل. أي أن يتحول الأب أو الزوج من مالك للحقيقة إلى طرف داخل علاقة اجتماعية قابلة للحوار والمراجعة.

كما أن بورديو **يمنح الثقافة دوراً مركزياً في تخفيف الصراع، لأن كثيراً من النزاعات الأسرية تنشأ من ضيق الأفق الاجتماعي ومن إعادة إنتاج التصورات التقليدية الجامدة حول النوع الاجتماعي والطاعة والهيبة والرجولة والأنوثة. فكلما امتلك الأفراد وعياً ثقافياً ونقدياً أوسع، أصبحوا أكثر قدرة على إدراك أن الحب لا يعني السيطرة، وأن الاحترام لا يبنى على الخوف، وأن السلطة التي تحتاج إلى الإخضاع المستمر هي سلطة تعاني هشاشتها في العمق.**

لكن الأهم في **تصور بورديو أن إصلاح الأسرة لا يمكن فصله عن إصلاح المجتمع نفسه**، لأن الأسرة ليست جزيرة مستقلة، بل مرآة للبنية الاجتماعية الكبرى. فالمجتمع الذي يقوم على التراتبية والعنف الرمزي وإقصاء الآخر سيعيد إنتاج هذه القيم داخل البيت، بينما المجتمع الذي يعزز العدالة والاعتراف والمساواة يفتح المجال أمام علاقات أسرية أكثر توازناً. ولهذا فإن القضاء الحقيقي على الصراع التسلطي داخل الأسرة يبدأ من تغيير الشروط الاجتماعية والثقافية التي تجعل الهيمنة تبدو أمراً مشروعاً وطبيعياً منذ البداية.